

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف

هويتنا الواقية في زمن العولمة

إعداد

أ.د/ محمد مختار جمعة
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية

القاهرة
١٤٤١هـ / ٢٠١٩م



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْـتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

(هود: ٨٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد للّه رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد اللّه ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن قضية تحديد الهوية والحفاظ عليها ليس أمرًا ثانويًّا في حياة الأفراد والشعوب ، بل هي أمر حيوي وديناميكي ، فالهوية هي حقيقة الشيء التي تميزه عن غيره ، وهي مجمل السمات التي تميز شخصًا عن آخر ، أو شعبًا عن آخر ، أو أمة عن أخرى، فالهوية الأولى هي الهوية الشخصية ، وتعني السمات المميزة لشخص ما ، والثانية هي الهوية الوطنية ، وتعني السمات الأساسية المشتركة لشعب ما ، والثالثة هي الهوية القومية ، وتعني السمات الأساسية المشتركة الجامعة لشعوب أمة من الأمم .

ويكفي وصمًا لشخص ما أن يقال عنه : إنه بلا هوية ، ولأمة ما أن يقال عنها : إنها أمة بلا هوية ، لأن فقدان الهوية يكاد يكون مرادفًا لفقدان

معنى الانتماء ، ومعنى الإحساس بالذات ، سواء على مستوى الأفراد أم على مستوى الأمم والشعوب .

وفي الحروب غير التقليدية تسعى قوى العولمة الكبرى إلى تمييع الهويات الوطنية أو تذويبها ، ليسهل بعد ذلك السيطرة على أبنائها ، فالإحساس بالكينونة والهوية يعني قوة الانتماء ، وذوبان الهوية يؤدي بالضرورة إلى ضعف الانتماء ، وكلما قويت روابط الهوية قويت الأمة .

ويشكل الدين ، والوطن ، واللغة ، والثقافة ، والحضارة ، والجغرافيا ، والتاريخ ، والمصير المشترك ، روافد قوية لتشكيل الهوية ، وبقدر قوة هذه المشتركات بين أبناء المجتمع تكون قوة تماسكه واتزانه ، وأي عنصر تفلح قوى العولمة في خلخلته يصبح أحد العوامل التي تهدد قوة الدول أو الأمم ، وتنال من وحدة صفها وكلمتها ، بما يشكل صدعًا كبيرًا في بنائها وتماسك لبناتها .

ومن ثمة وجب علينا أن ندرك وبعمق عوامل تشكيل هويتنا ، فنحافظ عليها ونتمسك بها ولا نسمح لكائن من كان باختراقها ، أو اللعب بها أو بنا ، أو النيل منها ، أو تقويض أركانها .

وقد بنيت هذا البحث على توطئة عن هويتنا الواقية في زمن العولمة ، وستة مباحث ، على النحو التالي :

المبحث الأول : الدين والهوية .

المبحث الثاني : الوطن والهوية .

المبحث الثالث : اللغة والهوية .

المبحث الرابع : الإعلام والهوية .

المبحث الخامس : الأسرة والتعليم وعوامل أخرى .

المبحث السادس : الهوية والصورة الذهنية للأفراد والمجتمعات .

وإني لأرجو أن أكون ببحثي هذا قد لفت النظر وشددت الانتباه إلى قضية ذات أثر كبير في قوة الدول والأمم وصمودها ، مؤكدًا أن التفريط فيها قد يكون ذا أثر بالغ في سقوط دولة ما أو انهيارها ، أو تشرذمها ، أو حتى ذوبانها في أمم أخرى وثقافات وهويات أخرى ، وهو ما يعبر عنه بذوبان الهوية ، مما يتطلب العمل الجاد على تقوية مناعتنا الحضارية ضد تيارات العولمة ، ومحاولات التجريف المستمرة من أجل تغييب الوعي الوطني لشعوب أو أمم بأكملها ، بغية السيطرة عليها ، وإنهاء دورها

الحضاري في حركة الحياة .

وإنني لعلى يقين بأن أمتنا قد تضعف لكنها لا تموت ، ولن تموت بإذن الله تعالى ، كما أؤمن إيمانًا لا يداخله أدنى شك بأن هذا الإيمان لا يعني الاتكالية الخاطئة ، إنما يتطلب الأخذ بأقصى الأسباب في كل المجالات لنحافظ على هويتنا ، ونؤدي رسالتنا في عمارة الدنيا بالدين ، وليس تخريبها ولا تدميرها باسم الدين .

والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

أ.د / محمد مختار جمعة
وزير الأوقاف

توطئة

هويتنا الواقية في زمن العولمة

يريد أعداؤنا أن نكون مسخًا أو طمسًا، بلا هوية ، بلا معالم ، بلا لون أو طعم أو رائحة ، هكذا يريدون لنا أن نذوب في الآخرين ، ليذوب تميزنا ، وتنطمس حضارتنا وهويتنا ، مما يتطلب منا اليقظة والمقاومة لمحاولات التذويب .

ولا شك أن ثمة عناصر هامة وعلامات فارقة هي تلك التي تشكل الهوية الواقية للأمم والشعوب ، في مقدمتها: الدين بكل آفاقه الواسعة ، والوطن بكل أبعاده ومقوماته : بداية من الجغرافيا وانتهاء بقوة الدولة ، إضافة إلى اللغة ، والثقافة ، والتاريخ بكل ما يحمله من إرث حضاري .

على أن هناك أممًا وشعوبًا ودولاً محدثة تريد أن تقفز فوق التاريخ ، غير أنها لا تريد أن تؤمن بالتطور الزمني ولا بالتراكم الحضاري ، فلا تجد من منظورها سبيلاً للقفز فوق التاريخ إلا بالعمل على هدم حضارات الآخرين ، ومحاولة القضاء عليها أو تشويهها ، فإن لم تستطع فبالعمل على إذابة هويتها

في هويات محدثة تفصمها عن كل ما شكل هويتها العظيمة عبر التاريخ ، وقد قالوا : من لا ماضي له فلا حاضر له ولا مستقبل .

ومع أننا لا نأخذ هذه العبارة على علاتها ، فإننا نؤمن بأهمية أن نتخذ من تاريخنا العريق ما ننطلق به في حاضرنا ونسهم به في صنع مستقبلنا وهويتنا الواقية في زمن العولمة والتيارات الثقافية والفكرية والأيديولوجية الطاحنة الجارفة ، وفي مواجهة موجات الشتات ومحاولات التشتيت أو التشويه الفكري .

لقد حرص نبينا (صلى اللّه عليه وسلم) على أن يكون للمسلمين هويتهم ، فنهاهم عن اللهث خلف مظاهر الآخرين الشكلية والتشبه بهم ، كما نهى الرجال عن التشبه بالنساء ، والنساء عن التشبه بالرجال ، وحرم على رجال أمته لبس الذهب والحرير في حين أحلهما لنسائها ، وقال (صلى اللّه عليه وسلم) : " لَعَنَ اللَّهُ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ"[1] ، حفاظًا

(١) صحيح البخاري ، كتاب اللباس ، باب : "الْمُتَشَبِّهُونَ بِالنِّسَاءِ ، وَالْمُتَشَبِّهَاتُ بِالرِّجَالِ" ، حديث رقم ٥٨٨٥ .

على هوية الرجل وهوية المرأة ، مع عدم الانتقاص من هوية أي منهما .

وفي الجوانب الإنسانية أكد ديننا الحنيف على حفظ العهود والمواثيق الدولية ، وعدم الغدر حتى بأعدى الأعداء ، وعدم أخذهم غيلة أو غدرًا ، حيث يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [1]، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم" [2]، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّة مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّة مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ "[3] .

كما أكد ديننا الحنيف على احترام آدمية الإنسان كونه إنسانا بغض النظر عن دينه أو لونه أو جنسه أو عرقه ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) الأنفال : ٥٨.

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ ، حديث رقم ٤٧٤٠ .

(٣) متفق عليه ، صحيح البخاري: كتاب الإيمان ، باب عَلاَمَة الْمُنَافِقِ ، حديث رقم ٣٤ ، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بَيَانِ خِصَالِ الْمُنَافِقِ ، حديث رقم ٢١٩.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾[1] ، فكرّم الإنسان على إطلاق إنسانيته ، ولم يقل : كرمنا المسلمين وحدهم ، أو المؤمنين وحدهم ، أو الموحدين وحدهم ، وأمرنا أن نقول للناس كل الناس حسنا ، فقال سبحانه : ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[2] ، وحرم قتل النفس كل نفس بغير حق ، فقال سبحانه : ﴿ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[3] .

هذه الهوية هي التي عبر عنها سيدنا جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) عندما سألهم النجاشي ملك الحبشة : عن هويتهم، فأجابه في ثبات ويقين: أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَسْتَحِلُّ الْمَحَارِمَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا

(١) الإسراء : ٧٠.

(٢) البقرة : ٨٣.

(٣) المائدة : ٣٢.

رَسُولًا مِنَّا ، نَعْرِفُ نَسَبَهُ ، وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ ، وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ" [1].

ولعل من أهم سمات هويتنا الواقية في زمن العولمة الجارفة هو بناؤها الأيدلوجي على القيم والأخلاق ، فقد بُني موروثنا الحضاري والثقافي على القيم والأخلاق ، ولخص نبينا (صلى الله عليه وسلم) الهدف الأسمى لرسالته الخاتمة بقوله (صلى الله عليه وسلم):" إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ"[2]، فتعلمنا أن الغايات الشريفة لا يمكن أن تتحقق إلا بالوسائل الشريفة ، وأن الانتهازية ومبدأ الغاية تبرر الوسيلة يمكن نقضهما بسهولة ، وعلى أقل تقدير تجاوزهما ، لأن من نكث فإنما ينكث على نفسه ،

---

(١) مسند أحمد ، ج ١ / ص ٢٠١ ، حديث رقم ١٢٥٣، ط : الرسالة .

(٢) مسند أحمد ، ج ١٩/ص ٢١٨، حديث رقم ٩١٨٧ .

حيث يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1].

كما تعلمنا أن الدول التي لا تبنى على القيم والأخلاق تحمل عوامل انهيارها وسقوطها في أصل بنائها وأسس قيامها ، وأن الأمم الراقية لا يمكن أن تنزلق إلى ما لا يليق بتاريخها وحضارتها وقيمها الأخلاقية والإنسانية الراسخة .

* * *

---

(١) الفتح : ١٠.

المبحث الأول :

الـديـــــن والهويـــة

التدين الصحيح صمام أمان لكل شيء ، ونراه من أهم الضوابط إن لم يكن أهمها على الإطلاق في توجيه سلوك البشر وتصرفاتهم ، ولا ينكر عاقل أو منصف أن الدين بصفة عامة أحد أهم عوامل بناء الشخصية وتشكيل الهوية ، وأن الفهم الصحيح للدين يسهم بقوة في بناء شخصية إيجابية بناءة ، وأن الفهم الخاطئ للدين ، أو الانحراف عن الأديان كلية يؤدي إلى خلل في تكوين الشخصية بقدر الانحراف عن صحيح الدين، أو قدر الفهم الخاطئ له ، بما قد يصل إلى درجات بعيدة من السلبية أو الهدم ، أو العقد النفسية المدمرة لصاحبها أو للمجتمع أو لهما معًا.

فالدين فطرة الله التي فطر الناس عليها ، حيث يقول الحق سبحانه : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [1]، ويقول

---

(١) الروم : ٣٠ .

سبحانه : ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، **ويقول سبحانه** : ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2]، **ويقول (عز وجل) في الحديث القدسي : "إنِّي خَلَقتُ عِبَادِيَ حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّهُ أتتهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، فَحَرَّمَت عَلَيْهِمْ مَا**

---

(١) البقرة : ٢١٣.

(٢) النساء : ١٦٣-١٦٥.

أحلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمرَتهُمْ أنْ يُشْرِكُوا بي مَا لَمْ أُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ بِهِ سُلْطَانًا "[1].

فلم يخلق الله (عز وجل) الناس ولا الكون عبثًا ولا هملًا ، حيث يقول سبحانه : ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ۝١١٦ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [2]، إنما خلقهم لغاية حددها سبحانه وتعالى ، حيث يقول في كتابه العزيز : ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [3] ، على أننا نفهم العبادة بمفهومها الواسع الذي يشمل - إلى جانب أداء العبادات والشعائر الدينية - إتقان العمل وعمارة الكون ، وبناء الحضارات .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الْجَنَّة وَصِفَة نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا ، بَابُ الصِّفَاتِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْجَنَّة وَأَهْلُ النَّار ، حديث رقم ٢٨٦٥ .

(٢) المؤمنون : ١١٥-١١٧.

(٣) الذاريات : ٥٦- ٥٨.

فالأديان السماوية كلها جاءت لسعادة البشرية وصلاحها واستقامتها ، يقول الحق سبحانه مخاطبًا نبينا محمدًا (صلى اللّه عليه وسلم) : ﴿ طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ [1] ، فالأديان قائمة على جلب المصالح للعباد والبلاد ودرء المفاسد عنها ، ومن القواعد المقررة أنه حيث تكون المصلحة فثمة شرع اللّه (عز وجل) ، يقول الإمام الشاطبي (رحمه اللّه) : المعلوم من الشريعة أنها شرعت لمصالح العباد ؛ فالتكليف كله إما لدرء مفسدة ، وإما لجلب مصلحة ، أو لهما معًا [2].

ويقول (رحمه اللّه): إن الشرائع إنما جيء بها لمصالح العباد؛ فالأمر والنهي والتخيير جميعًا راجعة إلى حظّ المكلف ومصالحه ؛ لأن اللّه (عز وجل) غني عن الحظوظ ، منزه عن الأغراض [3].

ويقول العز بن عبد السلام (رحمه اللّه) : لا يخفى على عاقل أن تحصيل المصالح المحضة ودرء

---

(١) طه : ١ ، ٢.

(٢) الموافقات للإمام الشاطبي ، ج ١ /ص ٣١٨ ، ط : دار المعرفة ، بيروت .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ /ص ٢٣٤ .

المفاسد المحضة عن نفس الإنسان وعن غيره محمود حسن ، وأن تقديم أرجح المصالح فأرجحها محمود حسن ، وأن درء أفسد المفاسد فأفسدها محمود حسن ، وأن تقديم المصالح الراجحة على المرجوحة محمود حسن ، وأن درء المفاسد الراجحة على المصالح المرجوحة محمود حسن ، واتفق الحكماء أيضًا ، وكذلك الشرائع على تحريم الدماء ، والأعراض ، والأموال ، وعلى تحصيل الأفضل فالأفضل من الأقـوال والأعمال [1].

فرسالة الأديان والرسل هي هداية الخلق ، وإقامة الحق والعدل ، ونشر الهدى والنور ومكارم الأخلاق، وتحقيق الرحمة للعالمين في الدنيا والآخرة ، حيث يقول الحق سبحانه : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[2]، **ويقول سبحانه :** ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ

---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ، للعز بن عبد السلام ، ج ١ /ص ٤، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة .

(٢) الحديد: ٢٥.

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾[1] ، ويقول سبحانه مخاطبًا نبينا (صلى الله عليه وسلم) : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

وها هو خطيب الأنبياء شعيب (عليه السلام) يدعو قومه إلى عدم التطفيف في الكيل والميزان، فيقول كما حكى القرآن الكريم على لسانه : ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾[3] .

وهذا نبي الله صالح (عليه السلام) يقول لقومه : ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾[4].

وعندما نبحث عن الهدف الأسمى لرسالة خاتم الأنبياء والمرسلين نجد أنه يقوم على ركيزتين

---

(١) ص : ٢٦.

(٢) الأنبياء : ١٠٧.

(٣) الشعراء : ١٨١ – ١٨٣.

(٤) الشعراء : ١٥٠ – ١٥٢.

أساسيتين : الأولى هي الرحمة ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ)[1] ، وهي أخص خصوصيات رسالة نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، أما الركيزة الثانية فهي الأعم ، وتتضمن الأولى وتدعمها وتؤكدها ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ)[2].

فقد أجمعت الشرائع السماوية على ما فيه خير البشرية، وما يؤدي إلى سلامة النفس والمال والعقل والعرض ، وقيم : العدل ، والمساواة ، والصدق ، والأمانة ، والحلم ، والصفح ، وحفظ العهود ، وأداء الأمانات ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، وبر الوالدين ، وحرمة مال اليتيم ، وهي مبادئ إنسانية عامة لم تختلف عليها الشرائع السماوية ، ولم تنسخ في أي شريعة منها ، حيث يقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم ، كتاب الإيمان ، ج ١/ ص ١٠٣، حديث رقم ١٠٠.

(٢) مسند أحمد ، ج ١٤ / ص ٨٩٥٢ ، حديث رقم ٨٩٥٢ .

بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1]، **فقد ذكر سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) أن هذه الآيات آيات محكمات لم تنسخ في أي ملة من الملل أو شريعة من الشرائع**[2].

---

(١) الأنعام : ١٥١-١٥٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري ، ج ١٢/ص ٢٢٦ ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط : مؤسسة الرسالة ، وتفسير ابن كثير ، ج ٣ /ص ٣٥٩ ، ط : دار طيبة للنشر والتوزيع .

فأروني أي شريعة من الشرائع أباحت قتل النفس التي حرم اللّه إلا بالحق، أو أباحت عقوق الوالدين ، أو أكل السحت ، أو أكل مال اليتيم ، أو أكل حق العامل أو الأجير .

وأروني أي شريعة أباحت الكذب ، أو الغدر ، أو الخيانة ، أو خُلف العهد ، أو مقابلة الحسنة بالسيئة .

بل على العكس فإن جميع الشرائع السماوية قد اتفقت وأجمعت على هذه القيم الإنسانية السامية، من خرج عليها فإنه لم يخرج على مقتضى الأديان فحسب ، وإنما يخرج على مقتضى الإنسانية ، وينسلخ من آدميته ومن الفطرة السليمة التي فطر اللّه الناس عليها .

ولا يمكن للعقوبات الدنيوية والأعراف والتقاليد وحدها مهما كانت دقتها أن تضبط حركة الإنسان في الكون ، مالم يكن لهذا الإنسان ارتباط وثيق بخالقه ، وقد قال أحد الحكماء : من الصعب بل ربما كان من المستبعد أو المستحيل أن نخصص لكل إنسان حارسًا يحرسه أو مراقبًا يراقبه ، وحتى لو خصصنا لكل إنسان

حارسًا يحرسه ، أو مراقبًا يراقبه ، فالحارس قد يحتاج إلى من يحرسه ، والمراقب قد يحتاج إلى من يراقبه ، ولكن من السهل أن نربي في كل إنسان ضميرًا حيًّا ينبض بالحق ويدفع إليه ، راقبناه أو لم نراقبه ، لأنه يراقب من لا تأخذه سنة ولا نوم ، فالتدين الحقيقي يعصم صاحبه من الزلل ، لأنه يدرك أن أعماله تحصى عليه ، وأنه سيقف بين يدي اللّه (عز وجل) الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، حيث يقول سبحانه: ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[1]، **ويقول (عز وجل) :** ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2]، **ويقول سبحانه :** ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ

---

(١) الصافات : ٢٤.

(٢) المجادلة : ٧.

ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[1]، **ويقول سبحانه :** ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾[2] ، **ويقول سبحانه :** ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾[3]، **ويقول سبحانه :** ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾[4]، **ويقول سبحانه على لسان لقمان (عليه السلام) في وصيته لابنه :** ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾[5].

على أن التدين الذي نبحث عنه ونسعى إليــه إنمــا

---

(١) الأنعام : ٥٩.

(٢) الكهف : ٤٩.

(٣) ق : ١٨.

(٤) يونس : ٦١.

(٥) لقمان : ١٦.

هو التدين الحقيقي الخالص لوجه الله (عز وجل) وليس التدين الشكلي أو النفعي .

ولا شك أن ظاهرة التدين الشكلي وظاهرة التدين السياسي تعدان من أخطر التحديات التي تواجه المجتمعات العربية والإسلامية ، فهناك من يركزون على الشكل والمظهر ولو كان على حساب اللباب والجوهر ، وإعطاء المظهر الشكلي الأولوية المطلقة ، حتى لو لم يكن صاحب هذا المظهر على المستوى الإنساني والأخلاقي الذي يجعل منه القدوة والمثل ، ذلك أن صاحب المظهر الشكلي الذي لا يكون سلوكه متسقًا مع تعاليم الإسلام يُعدُّ أحد أهم معالم الهدم والتنفير من الدين ، فإذا كان المظهر مظهر المتدينين مع ما يصاحبه من سوء المعاملات ، أو الكذب ، أو الغدر، أو الخيانة ، أو خلف الوعد ، أو أكل أموال الناس بالباطل ، فإن الأمر هنا جد خطير في الصد عن دين الله والتنفير منه ، بل إن صاحبه يسلك في عداد المنافقين ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا

وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ)[1].

وكذلك من يحصرون التدين في باب العبادات والاجتهاد فيها مع سوء الفهم للدين ، والإسراف في التكفير ، وحمل السلاح والخروج على الناس به ، كما حدث من الخوارج الذين كانوا من أكثر الناس صلاة وصيامًا وقيامًا غير أنهم لم يأخذوا أنفسهم بالعلم الشرعي الكافي الذي يحجزهم عن الولوغ في الدماء ، فخرجوا على الناس بسيوفهم ، ولو طلبوا العلم أولاً كما قال الإمام الشافعي (رحمه الله) لحجزهم عن ذلك[2].

فالإسلام دين رحمة قبل كل شيء ، وكل ما يبعدك عن الرحمة يبعدك عن الإسلام ، والعبرة بالسلوك السوي لا بمجرد القول ، وقد قالوا : حال رجل في ألف خير من كلام ألف لرجل .

على أن العبادات كلها لا تؤتى ثمرتها إلا إذا هذَّبت سلوك وأخلاق صاحبها ، فمن لم تنهه صلاته

---

(١) متفق عليه ، صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب عَلاَمَة الْمُنَافِقِ ، حديث رقم ٣٣. وصحيح مسلم: كتاب الإيمان ، باب بَيَان خِصَال الْمُنَافِقِ ، حديث رقم ٢٢٠ .

(٢) جامع بيان العلم لأبي يوسف عمر بن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣هـ ، ج ١/ ص ١٣٦، ط دار الكتب العلمية . بيروت .

عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له ، ومن لم ينهه صيامه عن قول الزور فلا صيام له ، يقول نبينا (صلى اللّه عليه وسلم) : (مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّور وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ للّه حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ)[1]، ولا يقبل اللّه (عز وجل) في الزكاة والصدقات إلا المال الطيب الطاهر ، يقول نبينا (صلى اللّه عليه وسلم) : (إنَّ اللّه طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إلاَّ طَيِّبًا)[2] ، ويقول (صلى اللّه عليه وسلم) : (لا يَقْبَلُ اللّه صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُورٍ ، وَلَا صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ)[3].

وأخطر من هذا التدين الشكلي التدين السياسي، ونعني به هذا الصنف الذي يتخذ الدين مجرد وسيلة ومطية للوصول إلى السلطة من خلال استغلال العواطف الدينية وحب الناس – وبخاصة العامة – لدينهم ، وإيهامهم بأن هدفه من الوصول إلى السلطة إنما هو فقط خدمة دين اللّه (عز وجل)

(١) صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، باب مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّور وَالْعَمَلَ بِهِ ، حديث رقم ١٩٠٣.

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، باب قَبُول الصَّدَقَةِ مِنَ الْكَسْبِ الطَّيِّبِ ، حديث رقم ٢٣٩٣ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الطهارة ، باب وجوب الطهارة للصلاة ، حديث رقم ٥٥٧.

والعمل على نصرته والتمكين له ، ومع أننا لا نحكم على النوايا ولا نتدخل في أمر النيات فهي ما بين العبد وخالقه ، وكل ونيته ، فإن الواقع يشهد بأمرين:

الأول : أن القضية عند هذه الجماعات ليست قضية دين على الإطلاق ، إنما قضية صراع على السلطة بشَرَهٍ ونَهَمٍ لم نعرف لهما مثيلًا ، مع إقصاء للآخرين في عنجهية وصلف وغرور وتكبر واستعلاء ربما لم يشهد تاريخنا مثله ، بما نفر الناس منهم ومن سلوكهم الذي صار عبئًا كبيرًا على الدين ، وأصبحنا في حاجة إلى جهود كبيرة لمحو هذه الصورة السلبية التي ارتسمت في أذهان كثير من الناس ؛ لربطهم بين سلوك هؤلاء الأدعياء وبين الدين .

الأمر الآخر: أنهم أساءوا لدينهم ، وشوهوا الوجه النقي لحضارته الراقية السمحة ، وأثبتوا أنهم لا أهل دين ولا أهل كفاءة ، وإلا فهل من الدين استباحة الدماء والأعراض ، والتحريض على العنف والقتل والفساد والإفساد ؟ .

وقد أكَّدتُ وما زلت أؤكد أن هذه الجماعات

الإرهابية التي توظف الدين لخداع الناس وتحقيق مآربها السلطوية هي على استعداد للتحالف حتى مع الشيطان لتحقيق أهدافها ومطامعها ولو على حساب دينها ، أو حساب وطنها ، أو حساب أمتها ، أو حساب ذلك كله .

أضف إلى ذلك ما درجت عليه هذه الجماعات وعناصرها وقادتها من الغش والكذب ، والمخادعة، والمخاتلة .

والأكثر سوءًا أنهم يعدُّون كل هذه الرذائل التي لا تمت للأديان أو الأخلاق بأية صلة وسائل مشروعة ، طالما أنها تحقق لهم الغاية التي يسعون إليها في سبيل التمكين السلطوي الذي يسعون إليه، وكلما علت درجة العضو في الجماعة كلما اتسع نطاق الاستحلال والكذب والخداع والمراوغة لديه ، فكبيرهم في التنظيم لا بد أن يكون كبيرهم في العمل على تحقيق مصلحة الجماعة بأي وسيلة وكل وسيلة ، بل إنه لا يكاد يصل إلى هذه المكانة إلا بأحد أمرين : الوراثة ، أو الوصولية والمزايدة في تنفيذ ما تطلبه منه الجماعة وإن خالف الشرع ، أو تطلّب سفك الدماء

أو الإفساد والتخريب .

ولا شك أن ما قامت به الجماعات الإرهابية المحسوبة ظلمًا على الإسلام من أعمال إجرامية قد أسهم في تصاعد ما يعرف بظاهرة "الإسلاموفوبيا" ، وأصبحنا في حاجة إلى بذل جهود جبارة لبيان أن ديننا الحنيف السمح لا علاقة له بهذا الإرهاب والإجرام ، وأنه منها جميعًا براء ، حتى نصحح الصورة الذهنية لديننا السمح ، والتي شوهت الجماعات الإرهابية جانبًا من صفحتها السمحة النقية .

كما أننا بحاجة أكثر إلى إبراز أثر الدين في نشر القيم الأخلاقية والإنسانية ، وإبراز أن دور الأديان هو عمارة الدنيا بالدين ، وليس تخريبها باسم الدين ، فالدين فن صناعة الحياة لا صناعة الموت .

* * *

المبحث الثاني :

الــوطــــــن والهويـــــة

الوطن والهوية

قضية الهوية والانتماء من أهم القضايا التي إما أن تؤدي إلى الأمن والاستقرار ، والازدهار والنماء حال الالتفاف حول قضايا الوطن والإيمان به ، وإما أن تؤدي إلى التشرذم والتفكك ، وإثارة الاضطرابات والقلاقل والفتن ، وربما العمالة أو الخيانة حال التنكر له ولحقه على أبنائه ، وإيثار المصالح النفعية الضيقة المقيتة على المصالح العليا للأوطان .

وللهوية أركانها ومعالمها التي يقاس من خلالهما مدى انتماء المرء لوطنه ، على أن جميع الدول والقوميات والأعراق والمذهبيات ، سواء تلاقت أم تداخلت أم توازت أم تناقضت ، فإن كلا منها يسعى ويعمل على تعميق الولاء والانتماء له لدى منتسبيه أو مستهدفيه ، كما أن هناك صراعًا تاريخيًّا أو شبه تاريخي يقوى ويطفو على السطح حينًا ، ويخفت ويستتر حينًا آخر ، لكنه موجود بصورة أو بأخرى على أية حال ، وهو ذلك الصراع بين الحريصين على هوية الدولة الوطنية وتعميق

وترسيخ وتجذير الانتماء لها ، ومن يعملون أو يدينون بولاءات أخرى .

والفهم الخاطئ الذي أصَّلته ورسَّخته كثير من الجماعات المتطرفة لدى عناصرها هو أن الولاء للجماعة والتنظيم فوق الولاء للوطن ، وهذا الفهم تتبناه جميع الجماعات الإرهابية والمتطرفة التي ترى أن الدولة الوطنية بحدودها الراسخة المستقرة تقف صخرة وعقبة كئود في وجه مشروعاتهم السلطوية للقفز على الدولة الوطنية .

ونؤكد على الآتي:

١- أن حب الوطن والحفاظ عليه فطرة إنسانية أكدها الشرع الحنيف ، فهذا نبينا (صلى اللّه عليه وسلم) يقول مخاطبًا مكة المكرمة: (واللّه إنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللّه ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللّه إلى اللّه، وَلَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ ؛ ما خَرَجْتُ) [1] ، ولما هاجر (صلى اللّه عليه وسلم) إلى المدينة واتخذها وطنًا له ولأصحابه الكرام لم ينس (صلى اللّه عليه وسلم) وطنه الذي نشأ فيه ، ولا وطنه الذي استقر فيه ،

(١) سنن الترمذي ، كتاب المناقب ، باب في فَضْل مَكَّة ، حديث رقم ٤٣٠٤ .

وقد قال : (اللهمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللهمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا، وَصَحِّحْهَا لَنَا، وَانقلْ حُمَّاهَا إِلَى الجُحْفَةِ)[1] ، وعَنْ أَنَسٍ (رَضِيَ اللّه عَنْهُ) " أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ ، فَنَظَرَ إِلَى جُدُرَاتِ المَدِينَةِ [2]، أَوْضَعَ رَاحِلَتَهُ وَإِنْ كَانَ عَلَى دَابَّةٍ حَرَّكَهَا مِنْ حُبِّهَا"[3].

وقد قال الحافظ الذهبي (رحمه اللّه) مُعَدِّدًا طائفةً من محبوبات رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) : "وكان يحبُّ عائشةَ ، ويحبُّ أَبَاهَا، ويحبُّ أسامةَ ، ويحب سبطَيْه، ويحب الحلواء والعسل ، ويحب جبل أُحُدٍ ، ويحب وطنه"[4].

---

(١) متفق عليه ، صحيح البخاري ، كتاب فضائل المدينة ، باب كَرَاهِيَةِ النَّبِيِّ أَنْ تُعْرَى الْمَدِينَةُ (أي : يخلو ما حولها فتترك عراءً)، حديث رقم ١٨٨٩، وصحيح مسلم، كتاب الحج ، باب التَّرْغِيبِ فِى سُكْنَى الْمَدِينَةِ وَالصَّبْرِ عَلَى لأْوَائِهَا، حديث رقم ٣٤٠٨ .

(٢) الجدرات، بضَم الْجِيم وَالدَّال : جمع جدر ، بضَمَّتَيْنِ جمع : جدَار. عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العينى (المتوفى: ٨٥٥ هـ) ، ج ١٠/ ص ١٣٥ ، ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة ، باب الْمَدِينَةُ تَنْفِى الْخَبَثَ ، حديث رقم ١٨٨٦ .

(٤) سير أعلام النبلاء ، لشمس الدين الذهبي ، ج ١٥/ ص ٣٩٤ ، ترجمة رقم ٢١٦ ، ط: مؤسسة الرسالة ، بيروت .

وقال عبد الملك بن قرَيْبٍ الأصمعي : إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ووفاء عهده ، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه ، وتشوُّقه إلى أهله ، وبكائه على ما مضى من زمانه [1]، ونقل مثل ذلك عن أحد الأعراب[2].

وفي السياق والمناخ الفكري الصحي لا يحتاج الثابت الراسخ إلى دليل، لكن اختطاف الجماعات المتطرفة للخطاب الديني واحتكارها له ولتفسيراته جعل ما هو في حكم المسلمات محتاجًا إلى التدليل والتأصيل ، وكأنه لم يكن أصلا ثابتًا ، فمشروعية الدولة الوطنية أمر غير قابل للجدل أو التشكيك ، بل هو أصل راسخ لا غنى عنه في واقعنا المعاصر.

وقد قرر الفقهاء أن العدو إذا دخل بلدًا من بلاد المسلمين صار الجهاد ودفع العدو فرض عين على أهل هذا البلد رجالهم ونسائهم ، كبيرهم

---

(١) كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني ، ط: دار إحياء التراث العربي ، ج ١/ ص ٣٤٧، والآداب الشرعية لعبد الله محمد بن مفلح المقدسي ، ج ١ / ص ٢٩٢، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عمر القيّام . ط : مؤسسة الرسالة.

(٢) العقد الفريد لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، ج ٤/ ص ٣١ ، تحقيق : مفيد محمد قميحة ، ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

وصغيرهم ، قويهم وضعيفهم ، مسلحهم وأعزلهم ، كل وفق استطاعته ومكنته ، حتى لو فنوا جميعًا ، ولو لم يكن الدفاع عن الديار مقصدًا من أهم مقاصد الشرع لكان لهم أن يتركوا الأوطان وأن ينجوا بأنفسهم وبدينهم .

٢- أهمية تعميق وترسيخ الولاء والانتماء الوطني، والاعتزاز بالوطن ، والاستعداد لفدائه بالنفس والنفيس ، مع الشعور بفضله ، والحفاظ على ترابه وثراه ، والتأكيد على أن الوطنية ليست نقيضًا للدين أو مقابلا له ، بل هي من صلب الدين، فمصالح الأوطان من صميم مقاصد الأديان ، كما أنه لا بد للدين من وطن آمن مستقر يحمله ويحميه .

٣- أن ترسيخ الهوية الوطنية له معالمه الظاهرة من احترام علم الدولة والعمل على رفعه عاليًا ، وترسيخ نشيدها الوطني وكل ما يحفر اسمها في النفوس والقلوب ، مع ما يدعمه مضمونًا وجوهرًا من العمل والإنتاج ، وإيثار المصلحة العامة للوطن على أي مصالح أخرى ، وإدراك أن مصلحة الوطن هي مصلحة لجميع أفراده وأبنائه ، وأن رجلاً فقيرًا في دولة غنية قوية خير مائة مرة ومرة من رجل غني

قوي في دولة فقيرة ضعيفة مهددة في كيانها وأصل وجودها ، لأن الأول له دولة تحمله وتحميه والآخر لا ظهر له .

٤- أن الهوية الوطنية قد تتلاقى مع هويات أخرى عربية، أو إسلامية ، أو أفريقية ، أو أسيوية ، حسب ظروف وموقع كل دولة ، على ألا يكون ذلك توجه أفراد أو جماعات أو أحزاب أو قبائل بمعزل عن التوجه الوطني ، فيذهب هذا إلى الشرق وذاك إلى الغرب وثالث إلى الشمال ورابع إلى الجنوب ، مما يؤدي إلى تمزق الدول وتفككها وتشتيت كيانها بل ربما تشرذمها، بل أن تكون الدولة الوطنية على قلب رجل واحد فى توجهاتها ، بما يعطيها القوة في محيطها الإقليمي وفي علاقاتها الدولية .

٥- أننا مع اعتزازنا بهويتنا وحضارتنا وثقافتنا الإسلامية واعتزازنا بها ، وإدراكنا لأهمية العمق الاستراتيجي الأفريقي واعتزازنا به وبهويتنا الأفريقية ، فإننا نرى في عمقنا العربي وهويتنا العربية بعدًا هامًّا يتطلب مزيدًا من العمل المشترك في ظل التحديات التي تواجه عالمنا العربي في وجوده وكيانه وتماسكه ، متطلعين إلى

دور أكبر وحركة دءوب لجامعة الدول العربية وجميع مؤسساتنا بما يحقق لمَّ الشمل العربي ، إذ نرى أن هذا الأمر صار ملحًا ، وأن المصلحة العربية المشتركة تقتضي أقصى درجات التنسيق والمشاركة في كل المجالات بما يحفظ للأمة العربية هويتها ، ويحقق لها مجتمعة أمنها واستقرارها ، ويسهم في القضاء على الإرهاب في المنطقة ، ويخلصها منه ، ويسهم في تخليص العالم كله من شر التطرف والإرهاب ، آملين أن يُشكل عملنا المشترك قوة ضاغطة في جميع المحافل الدولية بما يسمع صوتنا للعالم، ويبرز أننا ضحايا ولسنا جلادين ، وأننا في مقدمة المواجهين للإرهاب لأننا أكثر من يكتوي بناره ، وأننا دعاة سلام لا دعاة حرب ، غير أنه سلام لا يمكن أن يكون ولن يكون أبدًا استسلامًا ، وأن هذه الأمة لن تستسلم ولن تموت ، وأن روح المقاومة والممانعة الحضارية فيها لاتزال وستظل حية قوية ، وأنها لا يمكن أن تكون صيدا سهلاً لأعدائها ، وأنها على قدر المسئولية والتحديات ، مع إدراكنا أن الأمر يتطلب تحركًا سريعًا على كل المستويات قبل فوات الأوان ، لأن الخطر داهم، والخطب شديد، والعدو

شرس لا يهدأ ولا ينام، ويجب أن تكون يقظتنا أشد وهمتنا أعلى ، لأن الأمر يتعلق بأصل وجودنا ، فإما أن نكون أو لا نكون ، مع التأكيد على أننا معًا سنكون قادرين على تجاوز التحديات ، على المستوى الوطني ، والمستوى العربي ، والمستوى الإسلامي ، والمستوى الأفريقي ، والمستوى الدولي ، معًا مع الدول الصديقة والمحبة للسلام ، وفي كل ميدان بحسبه وما يناسبه ، وليس أي من هذه العلاقات على حساب علاقة أخرى تتساوق معها أو تتوازى ، على أننا لو أحسنَّا إدارة الأمر فستكون كل علاقة منها دعمًا للعلاقات الأخرى ، وبما يحقق مصالح الجميع ، إذن ينبغي على كل طرف أن يحصّل الخير لنفسه ولغيره وللإنسانية ، لنحيا معًا حياة هادئة هانئة ، لا أن تتحول الساحة الإقليمية أو الدولية إلى صراعات مختلفة لا تبقي ولا تذر ، ولا تعود بالخير على أحد ، فالعاقل من يعمل للسلام له ولغيره ، والأحمق من يسعى للهلاك والدمار والقلاقل والفتن ، حيث يقول نبينا (صلى اللّه عليه وسلم) : "إنَّ مِنْ النَّاس مَفَاتِيحَ لِلْخَيْر مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ ، وَإنَّ مِنْ النَّاس مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ ، مَغَالِيقَ لِلْخَيْر ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الْخَيْر عَلَى يَدَيْهِ ، وَوَيْلٌ لِمَنْ

جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ"[1]، وإنا لنرجو أن نكون من مفاتيح الخير بإذن اللّه تعالى .

* * *

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب أبواب السنة ، بَابُ مَنْ كَانَ مِفْتَاحًا لِلْخَيْر ، حديث رقم ٢٣٧ ، ط دار الرسالة العالمية .

المبحث الثالث :

اللغـــة والهويـــة

اللغة والهوية

اللغة هي الوعاء الحامل للمعاني والثقافات ، ولا شك أنها أحد أهم عوامل تشكيل الهوية ، والتأثير في بناء الشخصية ، فمن يعرف لسانين ويتكلم لغتين يجمع ثقافتين ، ومن يتحدث ثلاث لغات يجمع ثلاث ثقافات، ويقرأ نتاج عقول كثيرة ، غير أن لغة الإنسان الأم تظل أحد أهم العوامل في تشكيل ثقافته ، فالذي لا يدرك أسرار لغته لا يمكن أن يدرك كنه ثقافة قومه ولا أن يسبر أغوارها ، مع خصوصية بالغة للغة العربية ، فهي لغة القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة ، وفهم الكتاب والسنة فرض واجب ، ولا يتم إلا بتعلم اللغة العربية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾[1] ، ويقول سبحانه : ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ

(١) النحل: ١٠٣ .

مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[1]، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾[2] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾[3]، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ ، بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ" [4] ، وكان سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول : "تعلموا العربية فإنها من دينكم"[5] ، وعن يَحْيَى بْن أبي كثير ، أن كاتبا لأبي موسى كتب إِلَى عُمَر بْن الخطاب من أبي موسى كتابًا فيه لحن ، فكتب إليه عُمَر إذا أتاك كتابي هَذَا فاضرب كاتبك سوطا واعزله عن عملك[6]، ومرَّ (رضي الله عنه) على قوم يخطئون الرمي، فلامهم، فقالوا : "إنا قوم متعلمين"

---

(١) الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥ .

(٢) الشعراء : ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٣) الزخرف : ٤٤ .

(٤) شرح السنة للبغوي ج ٤ / ص ٢٠٢ ، وذكره السيوطي في الجامع الصغير ج ١ / ص ٤١٣ حديث رقم ٢٦٩٦ ، بلفظ : « أنا أعربكم ، أنا من قريش ، ولساني لسان بني سعد بن بكر » ، وقال : حديث صحيح .

(٥) شعب الإيمان للبيهقي ، ج ٣/ ص ٢١٠ ، حديث رقم ١٥٥٦ ، ط: دار الكتب العلمية بيروت .

(٦) كتاب فتوح البلدان لأبي الحسن أحمد بن يحي البلاذري ، ص ٢٣١ حديث رقم ٥٢٧ . ط: دار الكتب العلمية .

بنصب كلمة متعلمين في موضع يستلزم رفعها ، فقال (رضي الله عنه) : لّخطؤكم في لسانكم أشد عليّ من خطئكم في رميكم[1].

وقد علل يوهان فك لخلود العربية بقوله : إن لغة القرآن قد صارت في شعور كل مسلم – أيًّا كانت لغته الأصلية – جزءًا لا ينفصل عن حقيقة الإسلام[2].

ويقول بروكلمان : فبفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعًا مؤمنون بأن العربية وحدها هي اللسان الذي أُحِل لهم أن يستعملوه في صلواتهم، وبهذا اكتسبت العربية من زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى[3].

وبلغ حب المسلمين للعربية – لغة دينهم– مبلغًا يُعبر عنه البيروني الخوارزمي بقوله: ديننا واللغة

---

(١) شعب الإيمان : باب في طلب العلم ، ج ٣/ ص ٢١٠، حديث رقم ١٥٥٧، والجامع لأخلاق الراوي للخطيب البغدادي ، ج ٢/ ص ٨١ ، ط : دار الوفاء للطباعة والنشر.

(٢) الثقافة العربية الإسلامية وتجربة التفاعل مع الآخر ، د/ محمد رزمان ، ص ٢٦ ، ط : دار الكتاب الثقافي.

(٣) انظر : فلسفة اللغة العربية لجُرجي زيدان : ص ١٠٤ ، ط : المحرر الأدبي للنشر والتوزيع.

العربية توأمان ، والله لأن أُهْجَى بالعربية أحب إليَّ من أن أمدح بالفارسية ، ولذا لم نجد أمة من الأمم حفظت في صدورها من اللغة مقدار ما حفظه المسلمون من كتاب ربهم وسنة نبيهم (صلى الله عليه وسلم)[1].

ولأجل خدمة كتاب الله (عز وجل) قامت حول القرآن الكريم والسنة النبوية دراسات لغوية وبيانية وبلاغية عديدة ، حتى أن من أرَّخوا لعلوم البلاغة أكدوا أنها إنما نشأت في الأصل خدمة لكتاب الله (عز وجل) ، فعندما سئل أبو عبيدة معمر بن المثنى عن قوله تعالى : ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[2] ، وكيف شبه القرآن الكريم ما لا نعلم من طلع شجرة الزقوم بما لا نعلم ولم نر من رءوس الشياطين ، فقال رحمه الله : إنما خاطب القرآن الكريم العرب على قدر كلامهم ، ألم تسمع قول امرئ القيس[3]:

---

(١) نحو وعي لغوي ، لمازن المبارك ، ص ١٩ ، ط : مؤسسة الرسالة ، ودار الفرقان .

(٢) الصافات : ٦٥.

(٣) ديوان امرئ القيس ، ص ١٤٢ ، ط : دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٥هـ.

أَيَقتُلُني وَالمَشرَفِيُّ مُضاجِعي

وَمَسنونَةٌ زُرقٌ كَأَنيابِ أَغوالِ

والعرب لم تر الغول قط ، ولكن ذكرها كان يخيفهم ويرعبهم ، وكذلك الشأن في ذكر رءوس الشياطين ، فتم التعبير بها لتذهب النفس في معنى الجملة كل مذهب ، بحيث يتصور كل إنسان رءوس الشيطان بما يخيفه هو ، فما يخيف زيدًا ليس بالضرورة هو ما يخيف عمرًا ، ولو كان المشبه به معلومًا لربما أخاف بعض الناس دون بعض ، أما إبهامه هنا فأمر في غاية البلاغة والبيان ، وهو الأمر الذي دعا أبا عبيدة معمر بن المثنى إلى الشروع في مؤلفه البلاغي : كتاب مجاز القرآن .

ولا ينكر أحد أن التمكن في اللغة باب كبير لحسن فهم كتاب الله (عزوجل) وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم)، بل إن الأصوليين والفقهاء وغيرهم عدوا التمكن في اللغة العربية وأدواتها أحد أهم شروط الاجتهاد ، وبلا شك هو أحد أهم شروط المفسر وشارح كتب السنة ، كما أن التمكن في اللغة يؤدي إلى مزيد من ثقة المتحدث بنفسه .

وقد أكد الفقهاء على أن الناظر في الشريعة

والمتكلم فيها أصولا وفروعًا لا بد أن يكون متمكنًا من اللغة ولا يتكلم في شيء من ذلك حتى يكون عربيًّا أو كالعربي في كونه عارفًا بلسان العرب ، بالغًا فيه مبالغ العرب ، أو مبالغ الأئمة المتقدمين كالخليل وسيبويه والكسائي والفراء ومن أشبههم وداناهم[1] .

وعَن ابْن عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ لَا أَدْرِي مَا معنى : " فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض " حَتَّى أَتَانِي أعْرَابِيَّان يَخْتَصِمَان فِي بِئْرٍ ، فَقَالَ أحَدُهُمَا : أنَا فَطَرْتها ، أيْ أنَا ابْتَدَأتها ، وَفِيمَا يُرْوَى عَنْ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أنَّهُ سَأَلَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَر عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾[2]، فأخبره رجل من هذيل أن التخوف عندهم هو التنقص ، وأشباه ذلك كثير[3].

---

(١) المذاهب الفقهية وأهميتها في المحافظة على الشريعة الإسلامية ، د/ هاني تمام ص ٥١ ، ط : دار الإفتاء المصرية .

(٢) النحل : ٤٧.

(٣) الاعتصام، لإبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، تحقيق : سليم بن عيد الهلالي ، ج ٢ ، ص ٨١٠ ، ط : دار ابن عفان ، السعودية . الطبعة : الأولى ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

وعدم المعرفة باللغة العربية ودلالتها وعدم التعمق في فهم النص ومعرفة ما يتعلق به ، والاقتصار في العمل على الأخذ بظاهره دون معرفة دقائقه وأسراره يوقع في خطأ جسيم، وقد يصل الحال بصاحبه إلى استباحة الدماء [1].

وأؤكد أن في تراثنا اللغوي والأدبي والنقدي من الفكر والثراء والتنوع ما يحتم علينا إعادة قراءة هذا التراث قراءة جديدة عصرية يمكن أن تشكل أساسًا قويًا ومتينًا لبناء نظرية عربية في النقد الأدبي ، لا تنفصل عن تاريخها ولا عن هويتها ولا عن واقعها ، بل يمكن أن تكون حال نضجها أحد أهم ملامح هويتنا الواقية وخصوصيتنا الثقافية في زمن العولمة والتيارات النقدية والفكرية والثقافية الجارفة [2].

وأؤكد أننا - على سبيل المثال لا الحصر - لو أعدنا قراءة تراثنا النقدي قراءة واعية منصفة

---

(١) المذاهب الفقهية وأهميتها في المحافظة على الشريعة الإسلامية ، د/ هاني تمام، ص ٥٢ ، ط : دار الإفتاء المصرية .

(٢) راجع كتابنا : "الفكر النقدي بين التراث والمعاصرة .. نحو نظرية عربية في النقد الأدبي " ص ٦ ، ط : وزارة الأوقاف .

لوقفنا على كثير من كنوزه ونفائسه ، و اتضح لنا - بما لا يدع مجالا للشك - أن الحياة الأدبية العربية في عصرها الذهبي كانت تموج بتيارات وحركات نقدية لا تقل حيوية وأهمية عن حركة الحياة الأدبية والنقدية في القرنين : العشرين والحادي والعشرين سواء في أوروبا أم في عالمنا العربي ، وأن القضايا التي تناولها النقاد العرب القدماء لم تمت بموتهم، فإن الكثير منها ما زال حاضرًا بقوة في ثقافتنا الأدبية والنقدية ، وما زال قادرًا على تشكيل منطلق قوي ومتين لنظرية عربية حديثة في النقد الأدبي تنظر بعين الاعتبار إلى الماضي والحاضر معًا، بحيث لا تنكفئ على القديم ولا تنسلخ منه ، ولا تنعزل عن الحاضر والآخر الثقافي ، ولا تذوب في هذا الآخر ذوبانًا يفقدها خصوصيتها وتميزها، بل تنتقي من هذا وذاك النافع والمفيد ، الذي يتناسب مع حضارتنا وقيمنا وثقافتنا العربية والإسلامية ، بحيث تصبح

هذه النظرية – عند نضجها – هويتنا الواقية في مواجهة تيارات العولمة الجارفة العاتية [1].

* * *

(١) راجع كتابنا : "الفكر النقدي بين التراث والمعاصرة .. نحو نظرية عربية في النقد الأدبي" ص ٢٥٦ ، ط : وزارة الأوقاف .

المبحث الرابع:

الإعـــلام والهويـــة

الإعلام والهوية

الإعلام صناعة وفن ورسالة ، ولا ينكر دوره وأهميته إلا مغيب عن الواقع ، فلا شك أن الإعلام الهادف الرشيد أحد أهم مكونات الشخصية السوية ، ومما لا شك فيه –أيضا- أن الإعلام واحد من الأسلحة العصرية في المعارك والقضايا الفكرية والثقافية وتجييش الرأي العام أو تهيئته، وأن فقه المرحلة يحتاج إلى التوازن بين الإعلام الكاشف والإعلام الباني ، فلا يمكن لأحد أن ينكر دور الإعلام الرشيد في بناء المجتمعات والدول بصفة عامة وبناء الفكر الرشيد بصفة خاصة ، كما لا يمكن لأحد أن يتجاهل خطر استخدام بعض وسائل الإعلام ومواقع التواصل في العمل على هدم الدول أو إفشالها ، وبخاصة الإعلام الممول من تلك المنظمات أو الدول الراعية للإرهاب .

الإعلام بصفة عامة جزء من الوطن ومن أهم مكوناته، والإعلاميون هم نخبة من أبنائه ومثقفيه ومستنيريه ، فمن يبصّر بقضايا الوطن الحقيقية

ويواجه مخططات أعدائه إن لم يكونوا هم في الطليعة من ذلك؟

الإعلام الرشيد جزء من الحل وليس جزءًا من المشكلة ولا يمكن أن يكون ، كما أننا نؤمن بأن الإعلام ليس مجرد مصور فوتوغرافي للأحداث ، فإن مهمة الإعلام أكبر من ذلك بكثير ، فله إلى جانب مهامه في التوعية والبناء والتثقيف مهام رقابية كاشفة لا تقل أثرًا عن دور كثير من الجهات الرقابية التي تعمل على مواجهة الفساد بكل صوره وألوانه ماديًّا كان أو معنويًّا ، وليس لأحد أن يعمل على تجريد الإعلام من اختصاصاته أو يعمل على تحويله عن طبيعته أو يصرفه عن مهامه ومساره الصحيح ، إلا إذا كان لديه ما يخشى من المواجهة به ، غير أن ثمة فرقًا كبيرًا وشاسعًا بين الإعلام الموضوعي البناء والإعلام الإثاري أو الهدَّام .

ونرى أن الإعلام الرشيد لا يمكن أن يقوم على مجرد تصيد الأخطاء أو حتى مجرد رصدها وينتهي دوره عند هذا الحد معتبرًا الإثارة غاية لا وسيلة.

الإعلام الرشيد هو ذلكم الإعلام الذي يسهم في اقتراح الحلول ، ومعالجة المشكلات ، ويهيئ الطريق وينيره أمام القائمين على شئون البلاد والعباد والمؤسسات ، وهو الذي يذكر الإنجاز كما يبرز الإخفاق ، والذي يشد على عضد المجتهدين كما ينعي باللائمة على المقصرين.

الإعلام الرشيد هو الذي يعي طبيعة كل مرحلة وما تقتضيه المصلحة الوطنية ، واختيار الأوقات المناسبة لمعالجة القضايا .

الإعلام الرشيد يعني الموضوعية دون تهويل أو تهوين أو إفراط أو تفريط .

الإعلام الرشيد هو الذي يسمو صاحبه فوق الانطباعات الشخصية إلى درجة المعالجة الموضوعية ، وهو الذي ينصف المختلف معه عندما يحسن أو يكون الحق في جانبه ، كما ينصف المتفق معه أو حتى الموالي له ولا سيما إن كانت الصحيفة حزبية أو خاصة .

الإعلام الرشيد هو الذي يحدد أهدافه ويعمل على تحقيقها ، ويرتب أولوياته ويعمل على إنجازها ،

ويتخذ من كل ما يؤدي إلى البناء والتعمير ومواجهة الفساد والانحراف ومحاولات إفشال الدولة خطا ثابتًا .

ذلكم هو الإعلام الذي نفخر به عندما نطلق عليه مصطلح الإعلام الوطني أو الإعلام الرشيد أو الإعلام النبيل ، أو الإعلام الهادف ، أو الإعلام البناء ، وذلكم هو الذي يبقى ويضمن لصاحبه أو لمؤسسته خلودًا حقيقيًّا لا زيف فيه ، ويسهم في بناء الشخصية القويمة وتشكيل الهوية الوطنية المبهرة .

وحتى إعلام المعارضة فهناك المعارضة المنصفة الشريفة التي تقول لمن أحسن أحسنت ولمن قصر قصرت ، لا إعلام التصيد والتنكر وقلب الحقائق الذي يعمل على قلب الحسنات إلى سيئات على نحو ما نرى من إعلام الجماعات الإرهابية ، مما يجعلنا في حاجة ملحة إلى إعمال آلة إعلام البناء في مواجهة آلات إعلام الهدم ومحاولات إفشال الدول .

وعليه فإننا نحذر من الانسياق خلف إعلام الجماعات الإرهابية ، وكتائبها الإلكترونية ، وأبواقها الإعلامية ، وكل من يسير في كنفها على طريق الهدم ، والتشويه ، والكذب والافتراء ، وقلب الحقائق ، بل إن واجبنا أن نتعاون على كشف هؤلاء المجرمين وفضحهم وبيان عمالتهم وخيانتهم ، وأن نحذر بوضوح وشفافية من هؤلاء الخونة العملاء المأجورين ومن أبواقهم ومواقعهم المحرضة على الفتن، وهدم الأوطان ، وخدمة مخططات الأعداء ، قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

على أن مفهوم الإعلام العصري يتجاوز عالم الصحافة والتلفاز إلى آفاق أوسع وأرحب تشمل كل آليات التواصل الحديثة والعصرية مقروءة ومسموعة ومرئية بشتى الآليات والأدوات والوسائل.

مع تأكيدنا على أهمية الإخلاص والتجرد والبعد عن الأهواء وتصفية الحسابات ، فإن الوقوع في آفات

(١) يوسف : ٢١.

الهوى والميل وعدم الإنصاف طامة كبرى يجب الترفع عنها ، وذلك أن بعض النفوس المريضة لا تعرف سوى الهدم طريقا ، على حد ما قرره الإمام علي بن عبد العزيز الجرجاني في مقدمة كتابه "الوساطة بين المتنبى وخصومه" حيث ذكر أن أهل النقص فريقان ، فريق يعمل على جبر نقيصته وستر عورته ، وهذا أمر حسن لأنه قد شغل بأمر نفسه ويعمل على إصلاح حاله وشأنه ، أما الفريق الآخر من أهل النقص فقد قعد به عن الكمال عجزه أو اختياره ، أي ضعفه أو كسله ، فلم يجد شيئا أجبر لنقصه وأستر لعورته من انتقاص الأماجد وحسد الأفاضل ، ظنًّا أن ذلك قد يجرهم إلى مثل نقيصته أو ينزل بهم إلى مستوى درجته [1].

وقد امتهن بعض الناس حتى في العصور المتقدمة المدح والهجاء صنعة يتكسبون بها ، وإذا كان التكسب بالمديح والثناء أمرًا معروفًا حتى لدى شعراء الجاهلية فيمن عرفوا بمدرسة الصنعة أو

---

(١) انظر : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، لأبي الحسن الجرجاني ، ص٣ من المقدمة ، ط : مكتبة العرفان .

التكسب بالشعر كزهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني وغيرهما ، فإن هناك من عُرف بالتكسب بالهجاء حتى في عصر صدر الإسلام كالحطيئة الذي كان يبتز الناس بهجائه وتعرضه لهم ، حتى أن الخليفة عمر (رضي اللّه عنه) هدده تهديدًا شديدًا إن لم يكف عن أعراض الناس ، فقال : إذن يموت عيالي يا أمير المؤمنين ، فاشترى منه عمر أعراض الناس بأربعين ألف درهم على ألا يتعرض لهجاء أحد ، فكف الحطيئة عن هجاء الناس طوال خلافة عمر ، ثم عاد إليه بعد وفاته .

وكل هذا لا يمكن أن يصنع حضارة حقيقية أو يقدم للمجتمع الكفاءات التي تستحق الثناء والتقدير الحقيقي، بل إن هذا النقد قد يسهم في الهدم ، أما النقد الحقيقي المتجرد الموضوعي المبني على أسس علمية وعلى الخبرة والدربة والممارسة وكثرة التحصيل وعلى الإنصاف ، بأن تقول لمن أحسن : أحسنت ، ولمن أساء – بأدب وموضوعية – : أسأت وقصرت ، وربما تضع يده على وجه الخلل وعلى طرق الإصلاح ، فهذا هو النقد

الهادف الذي يبني ولا يهدم ، وينصف ويشجع ، وفي الوقت نفسه يبين ويحذر.

فإذا كانت القيادة مسئولية وأمانة ، فإن ممارسة النقد والتحليل أيضًا مسئولية وأمانة ، وكلنا مسئولون أمام الله (عز وجل) ، كل عن الأمانة التي ولاه الله إياها ، كما أننا مسئولون عن بناء وطننا ، والعمل على نهضته ورقيه من خلال سبل البناء والإصلاح لا الهدم والنقض ، ولا النفعية أو حب الظهور ، على أن الغالبية العظمى صارت تميز الغث من السمين ، وصدق الله العظيم إذ يقول في كتابه الكريم : ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1].

* * *

(١) الرعد : ١٧.

المبحث الخامس:

الأسرة والتعليم وعوامل أخرى

الأسرة والتعليم وعوامل أخرى

الأسرة هي اللبنة الأولى في تشكيل المجتمع ، وأحد أهم المؤثرات في بناء الشخصية وتشكيل الهوية .

وهي الوحدة الأولى التي تتكون فيها العلاقات ، ويكتسب المرء فيها كثيرًا من المعارف والمهارات ، وفيها يبنى وجدانه ، وتتشكل اتجاهاته في الحياة، وفيها يجد أمنه وسكنه [1]، وفي بيان أثر الأسرة في تكوين الشخصية، يقول الشاعر العربي [2]:

وَيَنشأُ ناشِئُ الفِتيانِ مِنّا   على ما كانَ عَوّدَهُ أبُوه

ويصور شوقي أثر ما يغرس في ذهن الناشئة من قيم أو أفكار أو معارف في وقت الصغر ، تمثيلية رائعة ، فيقول[3]:

---

(١) راجع نظام الأسرة في الإسلام ، لمحمد عقلة ، ص ٨ ، ط : مكتبة الرسالة الحديثة ١٩٩٠ م .

(٢) اللزوميات ، لأبي العلاء المعري ، قصيدة ، قد اختَلّ الأنامُ بغير شَكٍّ ، ج ١ ، ص ٤٢١ ، تحقيق د/ عمر الطباع ، ط : دار الأرقم .

(٣) الشوقيات ، ص ٢١٣ ، تحقيق د/ عمر الطباع ، ط : دار الأرقم .

سارت مها مسرورة ... مع والدٍ حانٍ أبر

فرأت هنالك نخلة ... معوجة بين الشجر

فتناولت حبلا وقالت ... يا أبي هيا انتظر

حتى تقوم عودها ... فتكون أجمل في النظر

فأجاب والدها لقد ... كبرت وطال بها العمر

ومن العسير صلاحها ... فات الأوان ولا مفر

قد ينفع الإصلاح ... والتهذيب في عهد الصغر

والنشء إن أهملته ... طفلا تعثر في الكبر

فلا شك أن بناء الإنسان وصياغة شخصيته يعتمد بدرجة كبيرة على نوع التنشئة والتربية الأسرية ، ولا سيما في مراحل عمره الأولى ، التي تطبع الشخصية بسمات وعادات وتقاليد تكاد تكون جينية أو متوارثة ، ربما لا تمحوها أية عوامل أخرى ، ولا سيما المجتمعات المغلقة.

وكما لا يمكن لباحث أو دارس أن يغفل دور الأسرة فلا يمكن له أيضا أن يغفل دور المدرسة والمعلم القدوة في بناء الشخصية ، وتشكيل ملامح هويتها ، فالتعليم الجيد يعني مواطنا جيدًا ، ذلك أن التعليم الحقيقي هو الذي يقوم على بناء الإنسان

فكريًّا ومعرفيًّا وسلوكيًّا ومهاريًّا ، فلم نر أمة نهضت وتقدمت علميًّا أو فكريًّا أو حضاريًّا بغير العلم والتعليم الجيد ، يقول الشاعر[1]:

أروني أمة بلغت مناهـــا

بغير العلم أو حد اليماني

ويقول الآخر[2] :

بالعلم والمال يبني الناس ملكهم

لم يبن ملك على جهـــل وإقـــلال

وفي إشارة إلى أهمية العلم والتعلم جعل نبينا (صلى الله عليه وسلم) فداء من يحسنون الكتابة من أسرى بدر أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة[3]، ويكفي أن أول ما نزل على سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من القرآن الكريم هو قول الله تعالى : ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، د/ عبد المتعال الصعيدي : ج١ ص٣ ، ط : مكتبة الآداب .

(٢) الشوقيات ، ص ٢٣٢ ، تحقيق د/ عمر الطباع ، ط : دار الأرقم .

(٣) نظام الحكومة النبوية ، المسمى التراتيب الإدارية ، للعلامة السيد محمد الكتاني ، تحقيق د/ عبد الله الخالدي ص / ١٠٨ ـ ط : دار الأرقم .

مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾﴾[1].

وقد أعلى الإسلام من شأن العلم والعلماء ، حيث يقول الحق سبحانه : ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[2]، **ويقول سبحانه :** ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[3] ، **ويقول سبحانه :** ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾"[4] ، **ويقول سبحانه :** ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[5]، **ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ**

---

(١) العلق : ١-٥.
(٢) الزمر : ٩ .
(٣) فاطر : ٢٨ .
(٤) المجادلة : ١١ .
(٥) النحل : ٤٣ .

الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ"[1].

على أن مفهوم العلم النافع يتسع ليشمل كل علم ينفع الناس في أمر دينهم أو أمر دنياهم، وليس خاصا ولا مقصورا على العلوم الشرعية وحدها ولا على العلوم العربية وحدها ، وأن قوله تعالى : ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2] ليس قصرًا على العلوم الشرعية ، إذ لم يقل سبحانه وتعالى اسألوا أهل الفقه وحدهم ، أو أهل الحديث وحدهم، أو أهل التفسير وحدهم ، إنما يتسع الأمر لسؤال أهل الطب في الطب ، وأهل الهندسة في الهندسة ، وهكذا في سائر العلوم والمعارف والصناعات التي تنفع الإنسانية ، فأهل الذكر هنا هم أهل الاختصاص في كل علم من العلوم ، أو صناعة من الصناعات ، أو حرفة من الحرف .

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب العلم ، باب : من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا ، حديث رقم ٣٦٤١ .

(٢) الأنبياء : ٧ .

ولذا نرى أن قول الله (عز وجل) : ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾[1]، جاء في معرض الحديث عن الآيات الكونية ، حيث يقول سبحانه : ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[2]، مما يؤكد ما ذهبنا إليه من اتساع مفهوم العلم النافع ليشمل كل ما فيه خير البلاد والعباد من علوم الدين وعلوم عمارة الكون وبناء الحضارات .

وقد قالوا التعلم قبل التعبد ، ليكون التعبد على هدى ، وقال الحسن البصري (رحمه الله) : العامل على غير علم كالسّالك على غير طريق، والعامل على غير علم يفسد أكثر ممّا يصلح ، فاطلبوا العلم طلبا لا تضرّوا بالعبادة ، واطلبوا

---

(١) فاطر: ٢٨ .

(٢) فاطر: ٢٨، ٢٩ .

العبادة طلبا لا تضرّوا بالعلم، فإنّ قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتّى خرجوا بأسيافهم على أمّة محمّد (صلّى اللّه عليه وسلّم)، ولو طلبوا العلم لم يدلّهم على ما فعلوا .

وينظر علماء التنمية البشرية للمعلم على أنه يشكل المصدر الأول للبناء الحضاري الاقتصادي والاجتماعي للأمم ، وذلك من خلال إسهاماته الحقيقية في بناء البشر وتكوينهم ، والحجم الهائل الذي يُضَاف إلى مخزون المعرفة ، الذي عبرت عنه نظرية رأس المال البشري بأنه كلما نجح المعلم في زيادة المستويات التعليمية لأبناء الأمم، ارتفعت معها مستويات المعرفة ، ومن ثم ترتفع مستويات الإنتاج القومي العام ، والذي بدوره ينعكس على زيادة مستويات دخل أبناء الأمم وتحقيق الرفاهية الاجتماعية[1].

ولا شك في أن قيام التعليم بدوره في مجال تعزيز الهوية الثقافية يتطلب تنفيذ أولويات عدة

---

(١) انظر : التعليم وبناء الشخصية الوسطية ، د/ نبيل السمالوطي بحث مطبوع ضمن بحوث كتاب : بناء الشخصية الوطنية ط : وزارة الأوقاف ص ٢٠٦-٢٠٧ ، نقلا عن كتاب " القيمة الاقتصادية للتعليم في الوطن العربي .. دراسات وبحوث " ، د/ محمد متولي غنيمة ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة سنة ١٩٩٦م .

أساسية : أولها ، التركيز على المناهج الدراسية التي ترسي وتعزز قيم الهوية الوطنية وركائزها في عقول وقلوب الأطفال .

بالإضافة إلى ضرورة تطوير المناهج التعليمية بالاعتماد على أساليب أكثر جذبا للنشء في ما يخص قيم المواطنة والهوية الوطنية ، وذلك على النحو الذي يحصن هذا النشء منذ الصغر ضد مخاطر فقدان الهوية ويغرس في نفوسهم حب الوطن وعاداته وتقاليده ، من خلال أدوات وأساليب غير تقليدية تتوافق مع نمط التفكير السائد لدى النشء .

وإلى جانب الأسرة والتعليم يأتي دور المؤسسات الثقافية بكل ما تحمله كلمة الثقافة من معانٍ ، ولا سيما في مجالات الآداب والفنون المنضبطة بضوابط القيم الأخلاقية والإنسانية الراقية .

وتشمل الثقافة - أيضا - مجموع ما توصلت إليه أمة أو بلد في الحقول المختلفة من أدب وفكر وصناعة وعلم وفن ، ونحوها ؛ بهدف استنارة الذهن وتهذيب الذوق وتنمية ملكة التفكير لدى الفرد

أو في المجتمع[1].

ويذكر بعض الكتاب أن عناصر الهوية الثقافية تتمركز حول أدوات ووسائل وأشكال التعبير التي تربط بين أعضاء المتحد الاجتماعي وحول تصوراتهم المشتركة للإنسان والكون والطبيعة والعالم والمجتمع ، وحول خيالهم الاجتماعي ، كما يتجسد في الحكايات والأمثال والأساطير والفولكلور وحول منظومة المعايير السلوكية والأخلاق العملية [2].

ويتسع نطاق الثقافة لتشمل في صيغتها الأنثربولوجية على منظومة العقائد والمعايير والقيم والتصورات المشتركة والعادات والأخلاق ، كما تشتمل على مختلف موضوعات الحياة اليومية والقيم الجمالية وتعبيراتها ، وأما في جوانبها السيكولوجية ، فالثقافة كل المكتسب من المبادئ الثقافية : (عقائد ، ومعايير ، وقيم) ، والتصورات الجمعية ، والنماذج والرموز المرجعية

---

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة ، د/ أحمد مختار عمر ، ج ١/ ص ٣١٨ ، ط : عالم الكتب ٢٠٠٨م . الطبعة : الأولى ، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .

(٢) انظر : الهوية لأليكس ميكشيللي ، ترجمة د/ على وطفة ، ٢٧ ، ٢٨، ط : دار الوسيم للخدمات الطباعية دمشق ، سنة ١٩٩٣م .

التي تكتسب على نحو سيكولوجي[1].

ولا شك أن اتساع الأفق الثقافي أو ضيقه يشكل عاملا رئيسا في بناء الشخصية وتشكيل الهوية للفرد والمجتمع، فثقافة ضيقة تعني مجتمعا مغلقا، وثقافة واسعة تعني سعة أفق الفرد والمجتمع ، فقد عانينا لفترات طويلة في عالمنا العربي والإسلامي من ضيق الأفق الثقافي أو محدوديته لدى كثيرين ، وربما انسداده أو انغلاقه في بعض الأحايين ، وقد صارت أحادية البعد الثقافي ظاهرة تستحق المناقشة ، حيث يركز الباحث أو الدارس على علم أو فن بعينه يستغرقه فكريًا أو أكاديميًا ، ينحصر فيه دون سواه ، مما يخرج لنا جيلاً ربما نجد فيه عالما غير مثقف ، أو غير قادر على العمل الجماعي بروح الفريق أو التواصل المرن مع مجتمعه ، لعدم إلمامه بأدوات العصر واتجاهاته الثقافية والمعرفية، وربما ينحرف بالمتحدث أو الكاتب إلى معالجة خاطئة لبعض القضايا ، أو ينجرف به إلى الصدام مع المتلقي مشاهدًا كان أو سامعًا أو قارئًا[2].

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة ، د/ أحمد مختار عمر ، ج ١ ص ٣١٨ ، ط عالم الكتب .

(٢) راجع مقدمة كتابنا : في فضاء الثقافة ص ٦، ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

كما أن تاريخ الأمم وحضارتها وآثارها وموقعها الجغرافي وطبيعتها الحضارية أو البدوية أو الساحلية أو الشاطئية ، وما تضم من بحار وأنهار وكثبان وتلال وسهول وجبال ووديان ، كل ذلك يطبع شخصية الإنسان بطابع يسهم بلا أدنى شك في تشكيل هويته وبناء شخصيته ، ومن مجمل السمات الشخصية المشتركة لغالبية أفراد المجتمع تظهر السمات المشتركة الكبرى لمجتمع أو دولة أو أمة من الأمم ، فالصورة الذهنية الكبرى لأمة من الأمم هي مجموع الصور الذهنية لأفراد هذه الأمة أو لغالبيتهم أو لأكثرهم تأثيرًا من بين أبنائها.

ويسرني أن أختم حديثي عن أثر الثقافة والحضارة في بناء الشخصية وتشكيل الهوية بجانب مما سطره الأديب الكبير الأستاذ / نجيب محفوظ في كلمته التي ألقاها نيابة عنه الأستاذ / محمد سلماوي في حفل تسلمه جائزة نوبل في الآداب ، وجاءت تحت عنوان : "أنا ابن حضارتين" وفيها يقول : أنا ابن حضارتين تزوجتا في عصر من

عصور التاريخ زواجًا موفقًا ، أولهما عمرها سبعة آلاف سنة، وهي الحضارة الفرعونية ، وثانيهما عمرها ألف وأربعمائة سنة، وهي الحضارة الإسلامية، ولعلّي لست في حاجة إلى التعريف بأي من الحضارتين لأحد منكم، وأنتم من أهل الصفوة والعلم، ولكن لا بأس من التذكير ونحن في مقام النجوى والتعارف .

وعن الحضارة الفرعونية لن أتحدث عن إنجازاتها في الفن والأدب ، ومعجزاتها الشهيرة الأهرام وأبو الهول والكرنك ، فمن لم يسعده الحظ بمشاهدة تلك الآثار فقد قرأ عنها وتأمل صورها .. دعوني أقدمها بما يشبه القصة ما دامت الظروف الخاصة بي قضت بأن أكون قصاصا، فتفضلوا بسماع هذه الواقعة التاريخية المسجلة .. تقول أوراق البردي : إن أحد الفراعنة قد نمى إليه أن علاقة آثمة نشأت بين بعض نساء الحريم وبعض رجال الحاشية.

وكان المتوقع أن يجهز على الجميع، فلا يشذ في تصرفه عن مناخ زمانه، ولكنه دعا إلى حضرته نخبة من رجال القانون، وطالبهم بالتحقيق فيما نما إلى علمه ، وقال لهم إنه يريد الحقيقة ليحكم

بالعدل.. ذلك السلوك في رأيي أعظم من بناء إمبراطورية وتشييد الأهرامات وأدل على تفوق الحضارة من أي أبهة أو ثراء، وقد زالت الإمبراطورية وأمست خبرًا من أخبار الماضي ، وسوف تتلاشى الأهرامات ذات يوم ولكن الحقيقة والعدل سيبقيان ما دام في البشرية عقل يتطلع أو ضمير ينبض .

وعن الحضارة الإسلامية فلن أحدثكم عن دعوتها إلى إقامة وحدة بشرية في رحاب الخالق تنهض على الحرية والمساواة والتسامح ، ولا عن عظمة رسولها ، فمن مفكريكم من كرمه كأعظم رجل في تاريخ البشرية ، ولا عن فتوحاتها التي غرست آلاف المآذن الداعية للعبادة والتقوى والخير على امتداد أرض مترامية ما بين مشارف الهند والصين وحدود فرنسا.

ولا عن المؤاخاة التي تحققت في حضنها بين الأديان والعناصر فى تسامح لم تعرفه الإنسانية من قبل ولا من بعد ، ولكنى سأقدمها في موقف درامي- مؤثر- يلخص سمة من أبرز سماتها، ففي إحدى معاركها الظافرة مع الدولة البيزنطية ردت الأسرى في مقابل عدد من كتب الفلسفة والطب والرياضة

من التراث الإغريقي العتيد ، وهي شهادة قيمة للروح الإنسانية في طموحها إلى العلم والمعرفة ، رغم أن الطالب يعتنق دينا سماويا والمطلوب ثمرة حضارة وثنية .

قدر لي يا سادة أن أولد في حضن هاتين الحضارتين ، وأن أرضع لبنيهما وأتغذى على آدابهما وفنونهما ، ثم ارتويت من رحيق ثقافتكم الثرية الفاتنة ، ومن وحي ذلك كله ، بالإضافة إلى شجوني الخاصة ، ندت عني كلمات أسعدها الحظ باستحقاق تقدير أكاديميتكم الموقرة فتوجت اجتهادي بجائزة نوبل الكبرى . أ هـ.

* * *



المبحث السادس :

الهوية والصورة الذهنية للأفراد والمجتمعات

الهوية والصورة الذهنية
للأفراد والمجتمعات

الصورة الذهنية لأي شخص أو مجتمع تنعكس سلبًا أو إيجابًا على قبوله أو رفضه ، على التعامل معه أو ضده ، وترتبط إلى حد كبير بموروثه الحضاري والفكري والثقافي ، ومدى اعتزازه بهويته وارتباطه بها ، وحرصه عليها.

ولا يقف أثر الصورة الذهنية عند مجرد النظر العاطفي إلى شخص أو دولة أو أمة ، إنما ينعكس ذلك مباشرًا على مصالح الأفراد أو الدول وعلاقاتها، فصورة ذهنية عن دولة جادة متقنة مبدعة سينعكس إيجابا على فتح الأسواق العالمية أمام منتجاتها والحرص على الإفادة من خبرات أبنائها ، أمة تحترم عهودها ومواثيقها ستكون موضع احترام وتقدير دولي ، وتستطيع أن تبني شراكات دولية واسعة ، ودولة لا عهد لها ولا ذمة ستكون موضع ارتياب دولي إن لم تصبح عرضة لعزلة دولية كبيرة تنعكس سلبًا على مصالحها ومصالح أبنائها.

والصورة الذهنية منها ما هو عارض خاطف ، ومنها ما هو مترسخ ومتجذر في الذاكرة ، غير أن بناء الصورة الذهنية لشخص أو شعب يحتاج إلى مساحات أوسع من الزمن وجهد ملموس على الأرض.

الصورة الذهنية الخاطفة أو العارضة قد تكون محدودة التأثير غير أن تراكم هذه الصور يؤدي بلا شك إلى بناء صورة ذهنية راسخة متجذرة تكون ذات أثر بالغ في الحكم على الأفراد أو الشعوب .

الصورة الذهنية الخاطفة تكون وليدة موقف أو لحظة كحسن مقابلة السائح ، أو إنهاء إجراءات استقباله بسهولة ويسر في جميع خطوات التعامل معه بدءًا من الحصول على إذن الدخول ، إلى إنهاء إجراءات استقباله بالمطارات والموانئ ، فالفنادق ، فالمتاحف، فسائر التعاملات .

وقد تتكون الصورة الذهنية لدى السائح بنظرته إلى مستوى النظافة والنظام واللمسات الجمالية والطراز المعماري لدى الشعب المضيف .

وقد تتكون الصورة الذهنية عن الدول والشعوب من خلال السلع التي تنتجها تلك الدول والشعوب ومستوى جودتها ومهارة صانعيها وحرفييها ، وأطبائها

ومهندسـيها ، ومعلميهـا ، وعلمائهـا ، وأدبائهـا ، ومفكريها .

وأرى أن الجانب السلوكي من أهم الجوانب المؤثرة في بناء الصور الذهنية ، وقد قالوا : حال رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل في رجل ، فالناس لا يصدقون الكاذب ، وإن خطب فيهم ألف خطبة وخطبة عن الصدق ، ولا يأتمنون الخائن أو الغادر وإن أعطاهم ألف عهد وميثاق وحدثهم ألف حديث وحديث عن الأمانة والوفاء ، لذا يجب أن يكون لنا وجه واحد ظاهره كباطنه ، وليس لنا وجهان أحدهما ظاهر والآخر خفي ، إذ يمكن للإنسان أن يخدع بعض الناس لبعض الوقت ، لكن لا يمكن لأي إنسان مهما كان ذكاؤه ومهما كانت حصافته وحيطته ودهاؤه أن يخدع كل الناس كل الوقت .

ولا شك أن المستوى الثقافي والمعرفي لأي شخص إنما ينعكس على الصورة الذهنية عنه ، فكلما كان الإنسان منطقيًا في خطابه كان أكثر إقناعًا ، أما إذا كان ظاهرة صوتية يعتمد على الجعجعة التي لا طحن لها دون سند من العقل

والفكر والحقيقة فإنه لا يمكن أن يقنع أحدًا ولو تذرع بجيش من وسائل الإعلام أو الكتائب الإلكترونية الحديثة ، لأن الحق أبلج والباطل لجلج ، حتى وإن توهم أنه ربح جولة أو جولات بعلو الصوت أو تجاوز حدود اللياقة في الحوار كوسيلة لإسكات الخصم أو المخالف ، فإنه يظل مجرد ظاهرة صوتية لا أثر لها ، وإن كان من أثر فهو أثر سلبي يصم الآذان عنه لما يلحقها من أذى صوته غير المنضبط .

وإذا أردنا إعادة بناء الصورة الذهنية لرجل الدين أو عالم الدين ، فيجب بناؤها على أساس سليم علميًّا ومهاريًّا وفكريًّا وتربويًّا ، يجب أن نحرر الخطاب الديني من أصحاب الأهواء والأفهام السقيمة على حد سواء ، وأن نتحول بقضية الخطاب الديني من كونه وظيفة إلى رسالة ، وأن يتم التركيز على الكيف لا الكم ، فإذا ما بدأ الباحث بتعلم العلوم الدينية فإن ذلك يتطلب دراسته لمكون ثقافي عام لا يقل عن أربعين في المائة بما يؤهله لفهم الواقع الذي يعيشه بكل جوانبه ، ويحقق بناء العقلية الجامعة دينيًّا وثقافيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا

وفكريًّا وقانونيًّا وإنسانيًّا ، ولا مانع أيضًا في ضوء نظرية التقابلية أن يتم النظر في قبول الحاصلين على شهادات علمية في التخصصات المختلفة ممن لديهم الاستعداد لدراسة العلوم الدينية في برامج تأهيل متقدمة في مجال الثقافة الإسلامية على أيدي العلماء المتخصصين ، ثم نقوم بعمل مزج وتدريب مشترك لهؤلاء وأولئك ، بما يتيح فرصًا واسعة للاحتكاك المباشر والحوار المباشر بين هؤلاء وأولئك ، مما يسهم في التقارب بدل التنافر ، وقد قالوا : من جهل شيئًا عاداه.

وعلينا كل في مجاله وميدانه أن نعمل على تصحيح الصورة الذهنية عن ديننا من خلال نشر الفكر الوسطي المستنير ، وتفكيك الفكر المتطرف ، والتمسك بأخلاق الإسلام ومثله العليا ، وأن نعمل كذلك على تصحيح الصورة الذهنية عن أوطاننا من خلال العمل والإتقان والإبداع والابتكار والسلوك القويم معًا .

وإذا أردنا أن نبني صورة ذهنية مشرفة لوطن أو أمة أو نحافظ عليها ، فلن يكون ذلك بغير العلم والعمل ، والإبداع والإتقان ، والعطاء الإنساني

المتميز في مختلف المجالات ، وفي خدمة الإنسانية ، فضلا عن اعتزاز أبناء هذا الوطن بهويتهم الوطنية واستعدادهم غير المحدود للتضحية في سبيل وطنهم والحفاظ على هويتهم.

* * *

فهرس الموضوعات

❊ ❊ ❊



رقم الإيداع: